الباب الرابع

مسؤولياتنا تجاه الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ

الفصل الأول

الروابط المتينة بين العروبة والإسلام

قبل الإسلام ، كان العرب يحملون صفات تميّزهم عن غيرهم ، وقد حددها العلامة ابن خلدون بقوله :

أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من القيام علىٰ الأنعام ، وأنهم مقتصرون علىٰ الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجيّ أو كمالي ، يتخذون البيوت من الشَّعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة ، إنما هو قصد الاستظلال والسكن لا ما وراءه ، وقد يأوون إلىٰ الغيران والكهوف ، وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو غير علاج ألبتة إلا ما مسته النار ، فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح ، كان المقام به أولىٰ من الظعن ، وهؤلاء سكان المدن والقرىٰ والجبال وهم عامة البربر والأعاجم ، ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم

ظعَّن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم ، فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويسمون شادية ، ومعناه القائمون علىٰ الشاه والبقر ، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة ، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة .

وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر طعناً وأبعد في القفر مجالاً ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر ، وورود مياهه الملحة ولتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذىٰ البرد إلىٰ دفء هوائه ، وطلباً لماخض النتاج في رماله ، إذ الإبل أصعب الحيوان فصالاً ومخاضاً ، وأحوجها في ذلك إلىٰ الدفء فاضطروا إلىٰ إبعاد النعجة ، وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً ، فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم ، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً ، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المدقور عليه والمفترس من الحيوان العُجم ، وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق ، إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة ، لأنهم يختصون بالقيام علىٰ الإبل فقط ، وهؤلاء يقومون عليها وعلىٰ الشياه والبقر معاً ، فتبيّن لك أن جيل

العرب طبيعي لابد منه في العمران ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[1] .

وهكذا كان العرب أقرب إلىٰ الخير من غيرهم ، وكانوا أقل إقبالاً علىٰ ملذات الدنيا وشهواتها ، وكانوا أقرب إلىٰ الشجاعة .

كل هذا وغيره جعلهم أكثر جاهزية لنشر الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وحملها إلىٰ بقاع المعمورة .

لذلك خلال عدة سنوات استطاع العرب بعد أن أرسل الله إليهم - وإلىٰ غيرهم - رسوله محمداً ﷺ ، استطاعوا أن يتحولوا إلىٰ شيء آخر .

لقد حوَّلهم الإسلام من أمة أميّة إلىٰ حملة للعلوم وسادة لها ، وأصبحوا يحملون أفكاراً لم يعرفها آباؤهم وأجدادهم وأهمها المساواة بين الناس ، وأن التفاضل لا يكون علىٰ أساس العرق والنسب والجاه والمال ، إنما التفاضل يكون بالتقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وحوَّلهم الإسلام من أناس يقتلون الأولاد من خشية الفقر

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ١٢١-١٢٢ .

إلىٰ أناس يحبّون الأولاد ويعطفون عليهم ، ومن أناس يدفنون الأنثىٰ وهي علىٰ قيد الحياة إلىٰ أناس يدلّلون البنات ، ومن أناس كانوا يدمنون شرب الخمر إلىٰ أناس يعتبرون الخمر : أم الخبائث ، وهكذا صاغ الإسلام العرب صيغة جديدة ، وأحدث فيهم تغيرات جذرية ، وفتح عقولهم علىٰ آفاق البحث والتفكر والنظر : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] . وعندها أصبح العرب أساساً من أسس نشر دعوة الله سبحانه ، وبالفعل حملوا هذه الأمانة إلىٰ أصقاع المعمورة ، وكان لهم الفضل الكبير في هذا المضمار .

لكن نستطيع القول : إن الذين حملوا الدعوة إلىٰ الآخرين لم يكونوا من جذور وأصول عربية فقط ، إنما كانوا من أجناس شتىٰ ، فلما دخلوا في الإسلام وانصهروا في بوتقته أصبحوا مسلمين كالعرب المسلمين ، إلا أن للعربية في المسلمين الغير عرب دوراً كبيراً ، فهم لا يستطيعون تعلّم الحديث القرآني إلا بتعلم لغة العرب ، وهكذا الأحاديث النبوية ، بل وكل العلوم العربية الإسلامية ، لذلك فكل مسلم غير عربي هو عربي بانتمائه ، مسلم بأفكاره وتطلعاته وطموحاته ، لا فرق ـ بعد انتشار الإسلام ـ بين العروبة والإسلام .

من هنا نفهم الدور الكبير الذي جعل المسلمين ـ والعرب منهم ـ يحملون مشاعل النور إلىٰ أرجاء المعمورة كافة ، وحتىٰ الحضارة الأوربية كان للمسلمين الفضل الكبير عليها!! وهذا ـ وللأسف الشديد ـ ما يغفل عنه أبناء العرب والمسلمين ، لذلك نلفت الانتباه إلىٰ ما يلي :

ما يطرحه بعض المغفّلين أو المشككين من أن اليونان القدماء أحدثوا معجزة في العلوم ، هذا كلام باطل لا أساس له من الصحّة ، إنما للمعجزة اليونانية ـ حسب تعبير جورج سارتون ـ أب وأم شرعيان ، أما أبوها فهو تراث مصر القديم ، وأما أمها فهي ذخيرة بلاد ما بين النهرين ، والشرق القديم مهد الحضارات ، والمعلم الأول للبشرية في المجالين ، المدنية المادية والعلوم كلها ، وفي المجال الروحي والمعتقدات الدينية ، هم العرب .

ثم جاء المسلمون ، فأخذوا من الحضارة اليونانية والرومانية ما هو مفيد للبشرية ، وصحّحوا كثيراً من أغلاطها ، وهذّبوا الكثير من معارفها ، وأخضعوا كل ذلك للبحث والدراسة والتمحيص والمقارنة والعقل السليم ، وكانوا يمتازون بالتحرر الفكري والانفتاح علىٰ كل ما هو مفيد

ونافع ، حتىٰ أصبحوا علىٰ حد تعبير (ويليم أوسلر) : لئن أشعل العرب سراجهم من قناديل اليونان ، فإنهم ما لبثوا أن أصبحوا شعلة وهّاجة استضاء بنورها أهل الأرض .

بعد هذا صبغ المسلمون كل العلوم والمعارف التي وصلت إليهم بصبغة الإسلام ، ولم يحتكروا ذلك لأنفسهم ، بل حملوها إلىٰ الأمم الأخرىٰ .

وبين عشية وضحاها دار الزمن دورته ليصعد سكان أوروبة وينزل المسلمون ، ولست هنا في صدد البحث عن الأسباب ، لكن الذي حدث هو تنكّر غالبية الأوربيين لفضل العرب والمسلمين عليهم ، ووصلت ببعضهم السرقة وقلّة الأمانة العلمية أن يسرقوا أفكار علماء العرب والمسلمين وينسبوها إلىٰ أنفسهم ! !

والأمثلة علىٰ ذلك أكثر من أن تُحصىٰ ، مثال ذلك ما فعله القديس (توماس الإكويني) حيث أخذ كثيراً من أفكار (ابن سينا) خاصة من كتابيه (الشفاء والنجاة) .

أجل ! لقد وقف المستشرق الإسباني (أسين بلاثيوس) في قاعة الأكاديمية الملكية الإسبانية في (٢٦/ ١/ ١٩١٩م) ليلقي خطاب استقباله ، فأعلن بكل صراحة أن (دانتي) في

(الكوميديا الإلٰهية) قد تأثر بالإسلام تأثّراً عميقاً واسع المدىٰ ، خاصة في حديثه عن الجحيم والجنة ، وشبه ذلك ما ورد في (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري ، وبعض كتب ابن عربي خاصة (المعراج) .

وفوجىء الحاضرون واستنكروا ذلك بشدة ، فما كان من (بلاثيوس) إلا أنه رد علىٰ ذلك بحجج قوية في كتاب نشره أواخر حياته بعنوان (الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية) .

و(ابن خلدون) سبق (غبرييل تارد) و (دور كهايم) و (ميكيافيلي) و (ماركس) في طرح نظريات في علوم الاجتماع والاقتصاد ونحو ذلك .

أما في العلوم التطبيقية فكان للعرب والمسلمين الدور الكبير علىٰ الحضارة المعاصرة ، وخاصة في الحضارة الأوربية ، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة ، منها :

أن (عبد الرحمن الخازن : ت١١٥٥م) جعل للوزن النوعي جدولاً دقيقاً لم يعرفه السابقون من قبل!

و(ابن الحائك ت ٩٤٥م) تحدث عن الجاذبية قبل إسحاق نيوتن (ت١٧٢٧م) بجلاء ووضوح .

و(بديع الزمان إسماعيل الجزري) اخترع الدسّامات في ضخ المياه ، و(تقي الدين الدمشقي) اخترع المضخة ذات الأسطوانات الست .

وفي الرياضيات برع العلامة الخوارزمي (ت٨٤٧م) فأدخل استعمال الصِّفر في العدّ والحساب ، ورتب علم الجبر ونظمه في كتابه الجبر والمقابلة ، ووضع جداول في حساب المثلثات .

وفي علوم الفلك : اشتهر من المسلمين (موسىٰ بن شاكر وأولاده) ، ووضعوا كتباً واخترعوا آلات لذلك ، واشتهر أيضاً مخترع الأسطرلاب وهو (إبراهيم الزرقالي : ت١٠٨٧م) وغيرهم .

أما في علوم الطب فيكفي أن نقرأ كتاب (شمس العرب تسطع علىٰ الغرب) للمستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) ففيه مقارنات رائعة بين التخلف الطبي والصحي الذي كانت تعيشه أوروبة في العصور الوسطىٰ وبين التقدم الهائل والكبير الذي وصل إليه العرب والمسلمون .

وفيه : كان في قرطبة وحدها خمسون مستشفىٰ ، وكانت هذه المستشفيات تتمتع بمواقع تتوافر فيها شروط الصحة

والجمال ، ولقد أنشأ المسلمون مستوصفات متنقلة بين القرىٰ التي لا يوجد فيها أطباء أطلقوا عليها (بيمارستانات) ، وعرفوا التخصص الطبي قبل غيرهم ، حتىٰ إن (الوليد بن عبد الملك) بنىٰ في دمشق مشفىٰ الجذام ، ومشفى المجانين ، ومشفىٰ العسكريين ، ثم تقول : بلغ عدد أطباء بغداد أكثر من (٨٦٠) ثمانمئة وستين طبيباً سوىٰ من كان في خدمة الخليفة ، وذلك في القرن العاشر الميلادي ، في الوقت الذي لم يكن في كل مقاطعات الرّاين طبيب واحد ! !

ثم تقول : ولقد ادعىٰ الإسباني (سارفيتوس) أنه مخترع الدورة الدموية ، حتىٰ قيّض الله باحثاً مصرياً أثبت عن طريق المخطوطات وما إلىٰ هنالك أن (ابن سينا) اكتشف ذلك قبل (سارفيتوس) بثلاثمئة عام ! !

هكذا كان أجدادنا العرب والمسلمون ، فكيف أَصبح حالنا ؟ وأين موقعنا من الحضارة المعاصرة ؟ !

* * *

الفصل الثاني

مسؤولياتنا تجاه الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل علىٰ وجوب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ كل مسلم ومسلمة ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالىٰ : يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ إلى الثقلين : الإنس والجن ، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله ، أي طريقته ومسلكه وسنّته ، وهي الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلىٰ الله بها علىٰ بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه ، يدعو إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ علىٰ بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي[1] .

ويؤكد القرآن علىٰ ذلك بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤/٥٨ .

مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت : ٣٣-٣٥] .

إنها تضع مكانة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ في صدارة الأعمال ، لتؤكد علىٰ أنها من أحسنها وأفضلها ، لأن ذلك كما أخبر رسول الله ﷺ : « بلِّغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » ، ثم ترسم الآيات طريق الدعوة إلىٰ الله عن طريق مقابلة إساءة الناس بالإحسان ، ليتحول الأعداء إلىٰ أصدقاء ، لكن هذه المهمة ليست بالأمر السهل ، إنما لن يصل إليها إلا الذين درّبوا أنفسهم علىٰ الصبر والمصابرة ، أولئك أصحاب الحظ الكبير في الدنيا والآخرة .

ولا يظن مسلم أن أمر الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ هو أمر ترفي أو ثانوي ، إنما هو فريضة محتومة قامت وستبقىٰ حتىٰ قيام الساعة ، قال تعالىٰ :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

أي أن مسألة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ فرض علىٰ كل فرد ،

وكلٌّ حسب استطاعته ، ولابأس أن يعيّن الخليفة طائفة من الناس ليتفرغوا من أجل هذه المهمة .

لذلك فعلىٰ كل مسلم أن يتحمّل قسطاً من أعباء الدعوة ، دون الهروب إلىٰ تبريرات ما أنزل الله بها من سلطان ، سواء كانت التبريرات ظلم بعضهم أو نقصاً في الموارد الاقتصادية أوخوفاً من أعداء وما إلىٰ هنالك ، فالله حدد المسألة ونظّمها بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] . وقدوة الجميع هو رسول الله ﷺ ، فكم عُذّب واتُّهم ، وكم أوذي في سبيل نشر الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وكم طُرد وشُرّد ، ومع كل ذلك لم يترك مكاناً ولا زماناً إلا انطلق يدعو إلىٰ الله تعالىٰ فيه .

لكن هل نستطيع في هذه الأيام أن ندعوا الآخرين دون أن نعدّ أنفسنا إعداداً كبيراً ؟ أبداً ، فالواجب علينا كمسلمين ـ وخاصة كعرب ـ أن نلتفت إلىٰ ديننا التفاتة إنسان يحب أن يعرف حلاله وحرامه ، وذلك عن طريق الوقوف عند آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ ، مصداق ذلك قول النبي ﷺ ـ فيما رواه الطبراني ـ : « اللهم ارحم خلفائي ، قيل : ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ويعلّمونها الناس » .

وعن طريق التعرّف علىٰ أحسن الأساليب التي توصل الدعوة إلىٰ الآخرين ، ولا يكون ذلك بالجدل أو المناظرات أو الدروس وما إلىٰ هناك ، وإنما يكون ذلك بالقدوة والأسوة الحسنة ، من حيث أن يجعل كل مسلم سلوكه في الدنيا حسب منهج القرآن والسنة ، ليكون داعيةً إلىٰ الله بالفعل والعمل ، لا داعية باللسان فحسب ، وهذا ليس أمراً صعباً ، إنما كلٌّ حسب ما يُسّر له ، فالطبيب الداعية هو الذي يُمارس مهنته في الطب لكنه يراقب الله ويخاف منه ، فيقدّم النصائح للمرضىٰ ولا يغشهم ولا يخدعهم ولا يستغل ظروفهم الصحية ، فبذلك يقوم بجزء من الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وهكذا المهندس أثناء بنائه للبيوت ، وكذلك التاجر في تجارته والفلاح في مزرعته والعسكري في ثكنته والقاضي في محكمته ، أي يقوم كل واحدٍ بالمهمة الموكلة إليه لكن بما يرضي الله ورسوله ، فيصبح داعياً ناجحاً .

إضافة إلىٰ ذلك ، علىٰ المسلم الداعية إلىٰ الله أن يهتم بأمور الآخرين ، سواء كانوا أولاد بلده أم لا ، وسواء كانوا من العرب أم لا ، لأن من لا يعرف مشاكل المسلمين لا يستطيع أن يقوم بالمهمة علىٰ خير مقام .

مثال ذلك : أن يتعرّف الداعية علىٰ ما يحيط بالمسلمين من مشكلة التنصير ، وقضية الاستشراق ، ومسألة الأعداء وما إلىٰ هنالك .

فإذا ما وصلنا إلىٰ هذه الدرجة من تدريب النفوس وضبطها بضوابط الشريعة الإسلامية ، عندئذٍ علينا أن نحمل ألوية الدعوة إلىٰ الله ، ويتحمّل كلٌّ منا مسؤولية تبليغ الرسالة إلىٰ الآخرين ، لكن ضمن محاور أهمها :

الالتزام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ في معرض قصة موسى وهارون مع فرعون ، فمع أن القرآن يذكر أن فرعون طاغية ومتجبّر ، ومع ذلك يأتي التوجيه القرآني لهما أن يتلطّفا معه حتىٰ بالقول : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٣ـ٤٤] .

أما أساليب العنف والإكراه والتفجيرات هنا وهناك والاغتيالات وما إلىٰ هنالك ، فهذه ليست من الإسلام في شيء ، وسيرة رسول الله ﷺ مع من عذبوه وأهانوه خير دليل علىٰ ما نقول .

أجل ، لقد كانوا في أوج تعذيبهم له ولأصحابه ، بينما

كان يرفع الكفّين إلىٰ السماء ويدعو الله قائلاً : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

ولن يكون الأمر في ليلة وضحاها ، إنما لا بد من التدرّج والهدوء ، وهذا منهج قرآني نبوي في كثير من الأحكام والقضايا .

لكن الأهم من ذلك كله أن يبدأ الداعية بنفسه ، يدعوها ويطبّق عليها المنهج ، ثم ينتقل إلىٰ زوجه والأولاد فيحصّن بيته ويربي أولاده ، ليكونوا جميعاً قدوة وأسوة للآخرين ، ثم ينتقل إلىٰ الناس جميعاً ، فيجعل همه تبليغ دعوة الله ، مستعيناً بالله علىٰ ذلك ، ناهجاً منهج القرآن ، مقتفياً خطوات رسول الله ﷺ .

لذلك كله فالواجب يتحتم علىٰ كل مسلم أن يحمل لواء الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وإلا فكل من مات ولم تبلغه الدعوة فوزر ذلك الشخص يتحمله المسلمون جميعاً ، لأن الله أعطانا نعماً لا تعدّ ولا تحصىٰ ، وخاصة البترول والموقع والطاقات البشرية ، فماذا قدّمنا لمسألة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ؟! وهل استخدمنا التقنيات المعاصرة (كالكمبيوتر والأنترنيت) لصالح الدعوة ، أم استخدمنا ذلك لصالح شهواتنا ومآربنا ؟

إن الخوف أن يكون غالبيتنا قد نسي هذه المهمة ، وخلد إلىٰ الراحة والدّعة ، وعندئذ لابدّ ممن يذكره بقوله تعالىٰ :

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾[محمد: ٣٨] .

وبقوله :

﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة : ٣٩] .

* * *

الخاتمة

أحسن الله تعالىٰ ختامنا أجمعين

بعد هذه الجولة السريعة في الحديث عن عالمية الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ يحقّ لنا أن نتساءل : ما هو دور المسلمين في هذا الزمان من تبليغ الدعوة إلىٰ الآخرين ؟!

لعل من المؤسف حقاً أننا جمّدنا رسالة السماء ، وحصرناها ، وحبسناها في أطماعنا وفي المواقع الضيّقة من حياتنا ، حتىٰ أصبحنا نشكل سداً منيعاً أمام نشر الدعوة إلىٰ الله ، ورحم الله الإمام محمد عبده عندما نظر إلىٰ تصرفات المسلمين فرآها الأنموذج الأسوأ ، فقال :

ولكنّ ديناً قد أردتُ صلاحه مخافة أن تطغىٰ عليه العمائم!!

ولو تركنا الإسلام ينطلق في ثقافته في حجم العالم ، ولو تركناه يتنفّس في الهواء الطلق ، ولو تركناه يبتعد عن تخلفنا وجهلنا ومعاني الخرافة التي ألصقناها به... ولو... ولو.. ، عندئذٍ سنرىٰ أن العالم كلّه يهتف للإسلام ، وكم

قرأنا لكبار المفكرين في الغرب أن المستقبل في العالم سوف يكون للإسلام ، لأنه الدين العالمي الوحيد الذي يجمع بين المادة والروح ، وبين الفردية والجماعية ، وبين العقلانية والغيرية .

أجل : لقد جمّدنا الإسلام ، وعلّبناه ، وجعلناه جسراً نقطعه من أجل أسمائنا حتىٰ تكبر أكثر ، ومن أجل مطامعنا حتىٰ تتضخم أكثر .

ذلك أننا مشغولون عن إبلاغ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وحملها إلىٰ الآخرين ، مشغولون بأمور لا تغني ولا تسمن من جوع ، ففي الوقت الذي يبلغ التبشير والتنصير أشدّه وخاصة في أندونيسيا والقارة الإفريقية ، وفي الوقت الذي تعربد الطائرات فيه صباحَ مساءَ فوق العراق وجنوب لبنان ، وفي الوقت الذي (ينبطح) الكثيرون من الدول الإسلامية أمام أقدام إسرائيل بما يسمىٰ التطبيع والسلام المزيّف ، هنا يُشغل المسلمون أنفسهم ، وتدور معارك طاحنة ، وينشطر المسلمون إلىٰ تحزّبات وفرق و . . . ! لكن حول ماذا ؟ إنهم يختلفون حول طول اللحية!! حتىٰ إن أحد أبطال المشايخ أصدر كتاباً عنوانه : « الردّ علىٰ من أباح الأخذ من أطراف اللحية!! »

وتارة يختلفون حول وضع اليدين في الصلاة! وتارة يختلفون حول أبَوَيْ النبي ﷺ هل هما في الجنة أم في النار ؟!

ما أشبه الليلة بالبارحة ، لقد دخل الغزاة عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد ، فذبحوا من المسلمين مئات الآلاف ، بينما علماء ذلكم الزمان مشغولون ومنقسمون حول مسألة أهم ألا وهي كيفية حفّ الشوارب!!

ورحم الله المتنبي عندما أطلقها صيحة تحذير فقال :

أغاية الدّين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم!!

لكن هل وَضْعُ المسلمين الحالي يعني اليأس والقنوط ، هل هذا يؤدي إلىٰ عدم مصداقية عالمية الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ؟!

أبداً ، فالوضع العالمي يعطي مزيداً في الأمل والتفاؤل من مستقبل الإسلام ، ففي أذربيجان يقارب عدد المسلمين (٦) ستة ملايين ، وفي أندونيسية يقارب عددهم (٢٠٠) مئتي مليون ، وفي أوزبكستان يقاربون (٢١) مليوناً ، وفي أوغندا (٦) ملايين ، وفي الباكستان (١٥٠) مليوناً ، وفي إيران (٦٥) مليوناً ، وفي بنغلاديش (١٢٠) مليوناً ، وفي تركيا (٦٥) مليوناً ، وفي غينية (٧) مليوناً ، وفي مالي

(٨) ملايين ، وفي ماليزية (١٤) مليوناً ، وفي نيجيرية(٧٥) مليوناً ، وفي إثيوبية (٤٠) مليوناً ، وفي الفيلبين (٢٠) مليوناً ، وفي كينية (١٠) ملايين ، وفي الهند (٢٠٠) مئتي مليون ، وفي فرنسا (٤) ملايين ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية وحدها (١٠) ملايين وهكذا . . .

وهذا مصداق نبوءة رسول الله ﷺ : « ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين ، بعزّ عزيزٍ ، أو بذلّ ذليل ، عزّاً يُعزّ الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر »[١] .

لكن ذلك يكون بوساطة الطائفة التي عناها رسول الله ﷺ بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتىٰ يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون علىٰ الناس »[٢] .

وهذا وعد من الله تعالىٰ ، والله لن يخلف الميعاد : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/ ١٠٣ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد : [صحيح الجامع الصغير رقمه (٧٢٩٠)] .

لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] . ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَحْذَرُونَ﴾ [القصص : ٥ـ٦] .

نسأل الله أن يتقبل منا هذا الجهد المتواضع ، فهو منه وإليه ، والفضل والتوفيق كله بيديه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم وبعض كتب التفاسير .
- الكتب المعتمدة في الأحاديث النبوية الشريفة .
- أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي ، عبد الله آل موسى ، ط١ سنة ١٩٨٥ عالم الكتب ، الرياض .
- الدعوة إلى الإسلام ، الشيخ محمد أبو زهرة ، ط١ سنة ١٩٨١ دار الفكر العربي ، القاهرة .
- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، الشيخ محمد الغزالي ط١ سنة ١٩٨٠ ذات السلاسل ، الكويت .
- الإسلام دعوة وليس ثورة ، محمد البهي ، ط٣ سنة ١٩٨١ مكتبة وهبة ، القاهرة .
- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ، رؤوف شلبي ، ط٣ سنة ١٩٨٣ دار القلم ، الكويت .
- الدعوة الإسلامية ، د . أحمد عمر هاشم ، ط١ سنة ١٩٩٠ ، مكتبة غريب ، القاهرة .

- فقه الدعوة إلى الله ، الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة ، ط١ سنة ١٩٩٦ . دار القلم ، دمشق .

- أسس دعوة خاتم النبيين ، د . محمد عمر الحاجي ، ط١ سنة ١٩٩٩ ، دار الحافظ ، دمشق .

- الدعوة إلى الله بين التكوين والتمكين ، د . علي جريشة ، ط١ سنة ١٩٨٦ مكتبة وهبة ، القاهرة .

- الدعوة إلى الله على بصيرة ، عبد المنعم محمد حسنين ، ط٢ سنة ١٩٨٤ دار الكتب الإسلامية ، بيروت .

- فقه الدعوة إلى الله ، د . علي عبد الحليم محمود ، ط٢ سنة ١٩٩٠ دار الوفاء ، القاهرة .

- البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت (د . ت) .

- الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز ، د . وهبة الزحيلي ، ط٢ سنة ١٩٩٢ دار قتيبة ، دمشق .

- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة ، د . يوسف القرضاوي ، مكتبة رحاب الجزائر (د . ت) .

- فضائل الصحابة في ميزان الشريعة الإسلامية ، د . محمد عمر الحاجي ، ط١ سنة ١٩٩٩ دار المكتبي ، دمشق .
- الاعتصام ، للإمام الشاطبي (إبراهيم بن موسى اللخمي) ، ط مكتبة الرياض الحديثة (د . ت) .

* * *